

الدين الأخلاقي كانط مثالا

بليل سمير : طالب دكتوراه
إشراف: اد نعيمة حاج عبد الرحمن
جامعة الجزائر 2

الملخص :

ارتبط مفهوم الأخلاق برجل يسمى إيمانويل كانط . حيث أننا لا نعالج هذا الموضوع الفلسفي دون العودة إلى فلسفته الأخلاقية التي تعد مرجعية لسؤال الراهنية على ضوء التحولات و التغيرات التي تميز عالمنا المعاصر و تأثير العولمة و التقنية على الاتيقا . ما أدى إلى طرح الكثير من الأسئلة و الإشكاليات على ضرورة إيجاد حلول و أرضية قوية تضمن استمرار واقعية الأخلاق . و هنا يظهر دور كانط التاريخي و الفلسفي التجاوزي للزمن بمشروعه التأسيسي للأخلاق الكونية . الأخلاق التي تراهن تساوي توزيع العقل البشري و وصوله لنفس القناعات و التي تتجلى في الواقع من خلال الإرادة الخيرة . و تعتبر فلسفة الدين عند كانط من أهم محاور التنوير، و ذلك لأن الدين كان لا يزال عنصرا مؤثرا في الساحة الألمانية، إن لم نقل أهم المواضيع التي دار حولها النقاش الفلسفي والفكري. لقد حاول كانط من خلال كتابه "الدين في حدود مجرد العقل" أن يعبر عن موقف العقل تجاه الدين، أي كيف يستطيع العقل الوصول إلى الحقيقة الدينية داخل حدوده التي لا تتجاوز ظواهر الحس .

الكلمات المفتاحية : فلسفة الدين – الأخلاق – نقد العقل .

تقديم:

يدعم عبد الرحمان بدوي رأي كارل بارت¹ في كتابه اللاهوت البروتستنتي في القرن التاسع عشر الذي يرى أن عنوان كتاب كانط الدين في حدود مجرد العقل لا يعني أن لا وجود للدين إلا في حدود العقل فقط، بل على العكس من ذلك، حيث يؤكد العنوان على أنه حتى داخل حدود العقل يجب أن يوجد الدين، ويميز كارل بارت بين "العقل فقط" و"العقل المحض" فالأول يمثل العقل الغيبي القائم على الوحي، وأما الثاني فيمثل ملكة معرفة الصور (idées)، حيث يركز كانط في كتابه على فلسفة الدين وليس على الدين في ذاته. أما الدكتور فتحي المسكيني في تقديمه لترجمة لكتاب كانط الدين في حدود مجرد العقل² فيرى أن تجريد الدين يعني تعريته من العقائد النظامية الشكلية و الكشف عن نواة الإيمان الحرّ الغير مرئية، وهذا يعني فهم الدين داخل حدود العقل المحض دون فرض رقابة خارجة عن طبيعته. خلاصة القول هي حق العقل في استيعاب الدين داخل مساحته المعقولة. لكن ما هي المبادئ التي حددها كانط حين يتعارض العقل مع النص الديني؟

الإيمان العقلي والإيمان التاريخي

يميز كانط بين نوعين من الإيمان، إيمان تاريخي وإيمان عقلي. يقوم الأول على الوحي المستمد من أحداث تاريخية وينتقل عن طريق التقليد والتعليم، ويؤمن بالمعجزات التي هي حوادث خارقة للطبيعة حصلت مع الأنبياء والرسل والقديسين حيث يعجز العقل عن تفسيرها، وتنقسم المعجزات إلى معجزات إيمانية لتدعيم الإيمان بالرسل، وهي بالنسبة لكانط مناقضة للعقل والأخلاق، ومعجزات الشعبية وتنقسم بدورها إلى معجزات ملائكية ومعجزات شيطانية، أما الإيمان العقلي فهو إيمان مؤسس على الأخلاق النابعة من العقل العملي المحض، وهو إيمان مجرد من كل صيغة تاريخية أو مذهبية. "الإيمان الديني المحض هو ذاك الذي يستطيع وحده أن يبني كنيسة كلية، وذلك من أجل أنه مجرد إيمان عقلي، يمكن تبليغه إلى أي مكان بغرض الإقناع؛ في حين أن إيماننا تاريخيا مؤسسا على الوقائع فحسب، لا يمكن أن يمد تأثيره أبعد ممّا يمكن للأخبار المتعلقة بالقدرة على الحكم على مصداقيته، أن تبلغ إليه تحت ظروف الزمان والمكان"³.

ويقصد كانط هنا الإيمان الأخلاقي المشترك بين جميع الكائنات العاقلة حيث يسهل على كل من يمتلك عقل الاقتناع بها أما الإيمان التاريخي فهو قائم على وقائع وأحداث مقيدة بشروط الزمان والمكان، وعلى الرغم من أن البشر يولون تقديرا كبيرا للإيمان، لكنهم مع ذلك لا يقتنعون بسهولة أن الإجتهاد beflissenheit الدؤوب في سيرة خلقية حسنة ربما يكون هو كل مطلوب الله من البشر وهم

¹كارل بارت Karl Barth (1886-1968) عالم لاهوت كالفيني سويسري يعدّه الكثير من العلماء من أهم مفكري القرن العشرين، وقد وصفه البابا بيوس الثاني عشر بأنه أهم عالم لاهوت ظهر منذ توماس الأكويني. وقد تخطى تأثير بارت الساحة الأكاديمية إلى الثقافة العامة، ليصل به إلى الظهور على غلاف مجلة التايم (Time) في 20 أبريل 1962

² - إمانويل كانط، الدين في حدود مجرد العقل، ترجمة: فتحي المسكيني، ط1، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، 2012، ص. 41.

³ - إمانويل كانط، الدين في حدود مجرد العقل، ص. 175.

يصرون على اعتبار عبادتهم خدمة der dienst يؤدونها لربهم، حتى ولو كان ذلك خال من القيمة الخلقية الباطنية للأفعال، ويغفلون عن أنهم لو قاموا بواجباتهم تجاه البشر (تجاه النفس وتجاه الغير) يكونون قد حققوا الغاية الأسى التي خلق الله من أجلها العالم، ويتساءل كانط كيف يريد الله أن يطاع؟

ويجب كانط أن الإرادة الإلهية تكون عبارة إمّا عن قوانين نظامية [•]staturisch أو من قوانين خلقية محضة، وانطلاقاً من القوانين الأخيرة يمكن لكل إنسان من ذات نفسه باستخدام عقله التعرف على إرادة الله ؛ من حيث أن مفهوم الألوهية يصدر عن إدراك هذه القوانين، و من حاجة العقل للقبول بوجود قوة macht تتضمن المفعول التام لهذه القوانين، وانطلاقاً من القوانين الخلقية المحضة لإرادة إلهية متعينة لا يمكننا التفكير إلا في إله واحد، وبالتالي في دين واحد، حيث يكون خلقاً محضاً، في حين أن قبول قوانين نظامية للإله، فهذا يخرج عن صلاحية حدود العقل المجرد. ولن تكون معرفته إلا عن طريق الوحي الذي لا يتسنى لجميع البشر باعتباره حدثاً عارضاً. "بل لن تكون ممكنة إلا عبر الوحي، وهذا، سواء أكان منزلاً سرّاً على كلّ واحد على حدة أو على نحو عمومي، من أجل نشره في السنة أو الكتاب بين الناس، ليس من شأنه أن يكون إلا إيماناً تاريخياً، وليس إيماناً عقلياً"¹. إن مثل هذا الإيمان بالنسبة لكانط لا يمكن أن يؤسس عليه الأخلاق، لأنه مقيد بشروط الزمان والمكان وخاضع لوقائع تاريخية، تجعله غير صالح ليلبس صفة كونية عالمية مشتركة بين كل الكائنات العاقلة، ولذلك فالإيمان الحق الوحيد هو الإيمان العقلي المؤسس على العقل المجرد، والذي مبادئه متفق عليها لأنها مبادئ الفطرة، والذي يؤمن بإله واحد مستقلاً عن كل وحي أو برهان. والسبب في تسمية كانط الإيمان القائم على الوحي بالإيمان التاريخي يرجع إلى اعتماده في بقائه على التقليد والتعليم. "التقليد والنقل هما المنهج المشروع لعلم اللاهوت التاريخي فيها حياة ذلك الإيمان لأن هدف التقليد والنقل هو استمرار معجزة الوحي، ودوامها بوصفها وصايا مقدسة يتعلمها البشر لتصير تعليماً ثابتاً لكل الأجيال على التوالي في كل إيمان"² ولذلك يرى كانط انطلاقاً من أن الواجب الأخلاقي هو الجوهر الحقيقي للدين أن الله هو المشرع الأسى للقانون الخلق، الذي يتأتى من مصدرين:

-المصدر الأول يتمثل في القانون الخلق الكامن في باطن كل إنسان عاقل، ويدفعه بحرية للتسليم بالإرادة الإلهية، وهذا ما يسميه كانط الدين الأخلاقي المؤسس على العقل المجرد.

-المصدر الثاني وهي الأوامر الإلهية المتضمنة في الوحي المنزل، وتتميز هذه الأوامر الأخلاقية بالإلزام الخارجي، وعدم اتفاقها مع مبادئ العقل العملي، وذلك لاستنادها إلى وقائع تاريخية كالوحي والمعجزات، ولذلك فهذا الإيمان مقيد ويفتقر إلى الحرية.

• - أوامر إلهية سلوكية يشترك فيها كل الناس وهي ذات طبيعة إلزامية.

¹ - إمانويل كانط، الدين في حدود مجرد العقل، ص. 177.

² - حسن فريال خليفة، الدين والسلام عند كانط، ص. 45.

لكن ما بين الإيمان العقلي و الإيمان التاريخي، ما هو الإيمان القابل لأن يكتسي طابعا كونيا شموليا؟ وكيف ذلك؟

انتصار الإيمان العقلي على الإيمان التاريخي

ينتقل كانط إلى نقد عقائد الإيمان التاريخي، مؤكدا عدم إمكانية تأسيس دين أخلاقي عليها، لأنها عقائد مجاوزة للعقل مفارقة له وهي محاولة لسد ذلك العجز في إدراك النومين، يسمي كانط هذا النوع من التفكير بالدوغماتيقية التي تزعم أن تصور الشئ وحقيقته شئ واحد، وهذا ما يولد التعصب والخرافة والوهم. لذلك يؤكد كانط على ضرورة عدم تأسيس الدين الحقيقي على هذه العقائد، بل يجب أن يقوم على استعداد القلب لتحقيق الواجبات الإنسانية تجاه البشر بصفته أوامر إلهية. وعليه، يعارض كانط عقيدة الكفارة حيث كيف لإنسان أن يعرف أن ذنوبه كلها قد غفرت له دون أن يقدم على أي مجهود في تكفيرها أو دون أن يبذل أي آلام تعينه على ذلك.

في مقابل ذلك، يثير كانط مسألة الإيمان الأخلاقي الذي يعتمد على السيرة الحسنة ككل لا يمكن تجزئته كمقياس للخير الخلقي، حيث لا يمكن تحديد وتعيين السلوك الخير في لحظات ثابتة، وأن يذنب الإنسان حياته بأكملها ثم يرجو في لحظة من اللحظات أن تغفر ذنوبه كلها و أن يكون مرضيا عنه من الله عن طريق كفارة يقدمها. "أنا أقبل بادئ ذي بدء بالقضية التالية بوصفها مبدأ أساسيا لا يحتاج إلى أي دليل: كل ما يظنّ إنسان أنّه مازال بإمكانه أن يفعله، خارج السيرة الحسنة، من أجل أن يصبح مرضيا عنه عند الله، هو مجرد وهم ديني وخدمة باطلة لله"¹. فليس على الإنسان أن يبحث عن شئ خارج السيرة الحسنة، بحيث لا يحتاج إلى معرفة الأسرار المقدسة، أو إدراك العلاقة في ذاتها بينه وبين الله بل كل ما عليه فعله هو تحسين نواياه الباطنية، وانعكاسها في أخلاقه العملية، أما حين يتعبد الله من خلال التضحيات باللسان، وبالخيرات الطبيعية، ومن دون أي نية خلقية فهذه العبادة تكون أقرب ما يكون إلى النمط الميكانيكي. "إنّه لوهم خرافي، أن يريد المرء، عبر أفعال يستطيع أي إنسان أن يقوم بها، من دون أن يحتاج في ذلك أن يكون إنسانا خيرا، أن يصبح مرضيا عنه عند الله (على سبيل المثال عبر شهادة الإعتراف بالعقائد الإيمانية المنظمة في شكل أحكام، وعبر ملاحظة القيود الكنسية وملازمة العقّة والطهارة)، إلخ"². ويعني ذلك أن يمارس المتعبد هذه العقائد الإيمانية ويعاملها وكأنها الغاية في ذاتها، مع أنها مجرد وسيلة لتجديد العلاقة بالله، وهذا يؤدي إلى إهمال النية الخلقية.

ويرى كانط أنه ليس على الإنسان إلا السعي بجد من أجل تحسين هيئته الأخلاقية حتى يكون أهلا لعون الله، وألا ينتظر أي شئ فوق غريب عنه لكي يحسن من نفسه، ولكن كانط لا ينفي إمكانية أن يوجد الأمران الجهد الخلقي والمعونة الإلهية ، ولا يمكنه أيضا إثبات ذلك.

¹ - إمانويل كانط ، الدين في حدود مجرد العقل، ص270.

² - إمانويل كانط، نفس المصدر، ص273.

لكن هل يمكن الإعتماد على الإيمان العقلي في قيادة البشر نحو سلام نهائي في ظل التعصب الديني الذي ولده اختلاف الملل في الإيمان التاريخي؟

إن الغاية من تأسيس الدين الأخلاقي هي إحلال السلام غير المشروط بين البشر، ليس ذلك السلام الزائف المتعلق بالمصالح السياسية، أو سلام المنتصر على المغلوب القائم على الذل والخنوع، والتاريخ يشهد على المجازر التي خلفتها الحروب الدينية في أوروبا ومازلت تخلفها اليوم في الدول الإسلامية، نتيجة التعصب الطائفي والتأويل الحرفي للنصوص الدينية. لهذا، يرى كانط أنه لا يجوز أن نسمي المسيحية والإسلام واليهودية بتسمية الدين بل هي عقائد مؤسسة على الإيمان التاريخي، فيما يقبع الدين الحقيقي في باطن القلب كمبدأ أخلاقي خالص خارج حدود الزمان والمكان متجليا في مبادئ العقل البشري الخالص.

ولهذا فهو إيمان أخلاقي حرّ لا يحتاج إلى قسر أو إكراه لأنه ينبع من ذات كل إنسان كواجب أخلاقي أسى وكغاية في ذاته، فيما تقوم عقائد الإيمان التاريخي على الدوجماطيقية واحتكار الحقيقة المطلقة مايقود إلى التعصب الأعلى، الذي لا يرى الحقيقة إلا داخل دائرة معرفته وماعدا ذلك فهو ظلال وزندقة، ويجب إخضاع كل من يختلف عن هذه العقيدة قيد أنملة عن طرق حملات الغزو والحروب الدينية، وهذا النوع من الوثوقية يتقوى عندما تكتسي الآراء البشرية ومحاولتهم فهم الدين و تأويل الكتب المقدسة طابعا معصوما يضاهي أو يتجاوز أحيانا حتى العصمة الأصلية للدين الموحى به، مع أنه لا تعدو أن تكون هذه التأويلات والتفسيرات مجرد محاولات بشرية ناقصة، تحتمل الصواب والخطأ، وهي نسبية مقيدة بظروف الزمان والمكان، وفي حال تغير هذه الشروط تصبح عاجزة عن مسطرة هذه التحولات الجديدة التي تحتاج إلى تأويلات جديدة، وفي حال إصرار رجال الدين المتعصبين على معتقداتهم القديمة المقدسة وفرضها على الجيل الجديد تقع المعضلة التي تعاني منها كل الشعوب المتدينة، وتستحيل البشرية إلى الصراع الدموي والتعصب وظهور محاكم التفتيش.

لهذا يرى كانط أنه لا يوجد إلا دين واحد، وذلك مع اختلاف المعتقدات، ومن الأنسب أن ننسب الإنسان إلى معتقده كأن نقول: مسيحي أو مسلم أو كاثوليكي أو لوثري، بدلا من أن نقول: هو على الدين الفلاني، لأن مفهوم الدين أوسع من المعتقد المؤسس على الإيمان الكنسي المستند إلى الشعائر، على عكس الدين الخلقي القائم على النوايا الباطنية. "نحن نخلع على أغلب الناس شرفا كبيرا بأن نقول عنهم، هم يعتنقون هذا الدين أو ذاك، وذلك أنهم لا يعرفون أي دين ولا تهفوا أنفسهم لأي دين؛ إن الإيمان الكنسي النظامي هو كل مايفهمونه تحت هذه اللفظة. كذلك فإن كل النزعات الدينية المزعومة، التي زعزت العالم أغلب الأحيان وخصبته بالدماء، لم تكن أبدا شيئا آخر غير شغب وعراك حول إيمان الكنائس، والمظلوم المغلوب على أمره لا يشكو على الحقيقة من أنه قد منع من التمسك

بدينه، (فذلك مالا تقدر عليه آية قوة خارجية)، بل إنه لم يسمح له أن يتبع إيمان كنيسته على نحو عمومي.¹

وعندما تحتكر الكنيسة الصيغة الكونية للدين، على الرغم من تأسيسه على الوحي الذي يعد شيئاً تاريخياً، فكل من لا يعترف بإيمانها الكنسي الخاص، يسمى كافراً، أما الذي يزيع عنها قليلاً فيما ليس بالجوهرى، فيسمى ضالاً، وأما من يعترف بهذه الكنيسة بذاتها ولا يؤمن بجوهرها الإيماني فيسمى زنديقاً. "إن الأغشية التي تحتها أول الأمر يشكل الجنين إنساناً، ينبغي أن تنزع، حتى يمكنه أن يبرز على النور، إن الشريط الهادي للتقاليد المقدسة، بملحقاتها ولوائحه والقيود الرهبانية، الذي قدم خدمات جيدة في زمانه، قد صار شيئاً فشيئاً بلا جدوى، بل في نهاية الأمر قيداً، متى بلغ المرء عمر الشباب".² هكذ فإن الإيمان التاريخي غير قادر على استيعاب الدين الأخلاقي، وبالتالي فعليه أن يفسح الطريق أمام الإيمان العقلي. لكن ما هي المبادئ العقلية التي يقوم عليها هذا الإيمان؟ وكيف لهذا الإيمان أن يكون في متناول كل البشر؟ وما هي الشروط التي يجب أن تتوفر في الإنسان كي يتواصل مع ذا القانون الأخلاقي؟

القانون الأخلاقي كتمثل حر للإرادة وتأسيس المجتمع الأخلاقي

لأن القانون الأخلاقي نابع من عالم المعقولات المفارقة لعالم الحس، والتي لا يمكن إدراكها في ذاتها باستخدام ملكة الفهم، فهو يتميز بالقبلية، ما يجعله خارج حدود الزمان والمكان، وبالتالي لا يخضع لشروط الحس، ويعلو على الرغبات والأهواء الدنيا، لذلك فهو يتميز باللامشروطية في تحديد السلوكات الأخلاقية التي لا تخرج عن نطاق الإرادة الحرة للإنسان، ويتنزه هذا القانون الأخلاقي عن الإكراه والقسر، على عكس القانون المدني المفروض عن طريق وضع العقوبات المادية ما يجعله قابلاً للخرق والتجاوز في حال غياب من يسهر على تطبيقه. "إنه يمكن لجماعة سياسية أن تتمنى أن توجد فيها أيضاً سيطرة على النفوس والأفئدة طبقاً لقوانين الفضيلة، إذ، حيثما تعجز وسائل إكراهها عن نيل مرادها، من أجل أن القاضي البشري لا يستطيع أن ينفذ ببصره إلى باطن البشر الآخرين، فإن النوايا الفضيلة سوف تحقق المطلوب".³

يمقت كانط يمقت المشرع الذي يكره الأفراد على الدخول ضمن جماعة أخلاقية بالقوة، ولهذا فيجب تأسيس جماعة أخلاقية، وفيها يخضع كل الأفراد لتشريع عمومي، وأن ينظر للقوانين باعتبارها وصايا من مشرع عام، وفي هكذا جماعة أخلاقية لا يمكن أن يكون الشعب هو ذاته مشرعاً، وإنما يقوم التشريع على الحقيقة بالكلية، والتي هي شئ باطني، ولا يمكن أن تنبع من قوانين بشرية عمومية، وهذا يفرض وجود طرف آخر، وهو الله الذي له القدرة الكاملة على النفوذ إلى باطن ونوايا القلوب.

¹ - إمانويل كانط، الدين في حدود مجرد العقل، ص 183.

² - إمانويل كانط، نفس المصدر، ص 198.

³ - إمانويل كانط، مصدر سابق، ص 166.

وبما أن الإنسان يعتبر جزءا من العالم وليس علة له، عجز عن تكييف الطبيعة مع المبادئ العملية أو القانون الأخلاقي، وهذا ما يقوده إلى التسليم بوجود الله كعلة للطبيعة لكنه مختلف عنها. "فوجود الله هو الأساس لتوافق الطبيعة ليس مع أفعال في شكلها وصورتها ولكن مع الأخلاقية أو القانون الأخلاقي بوصفه دافعا للأفعال الأخلاقية. وبالتالي يكون الخير الأقصى ممكنا في العالم بناء على افتراض العلة الأسمى للطبيعة أو افتراض وجود الله بوصفه مصادرة لإمكانية الخير الأقصى، وفي الوقت عينه مصادرة لواقع الخير الأقصى أي مصادرة على وجود الله"¹ هكذا فإن كانط يعتقد أن تأسيس فكرة الخير الأقصى تشترط كائنا أسمى يكون علة وسببا في كل شيء، وضامنا للأفعال الأخلاقية القائمة على العقل العملي المجرد المؤسس على الخير في ذاته، وهكذا يصل الإنسان إلى الدين عن طريق العقل العملي، بوصفه غاية نهائية وواجبات أخلاقية حرة بعيدة عن الإلزام والإكراه، حبا في الدين لا خوفا من العقاب وصولا إلى حب الله باعتباره الموجود الأسمى الذي يستحق العبادة، وتكون الغاية النهائية لخلق العالم ليست سعادة البشر، بل الخير الأقصى، وبذلك يكون الواجب الأخلاقي ليس بغية أن يكون البشر سعداء، بل أن يكونوا أهلا لهذه السعادة.

يذهب كانط إلى أن الدين الخلقي هو دين الفطرة ودين العقل النقي، والذي يقودنا إلى افتراض الكمال الأخلاقي الذي لا يمكن أن يقوم دون افتراض وجود كائن أسمى قادر على إدراك النوايا الباطنية الخلقية، بحيث يفقد هذا الإستعداد قيمته في حال عدم وجود مراقب، وهذا الاعتبار يفقد قوته إذا لم يجد موجودا يلتفت إليه، وبدون الإعتقاد بهذا الموجود لا يصل الإنسان إلى الوعي بالقيمة الأخلاقية الأسمى، لأن الله فقط هو الذي ينظر إلى استعدادنا الخلقي وهو الحافز والباعث الذي يعزز ويقوي هذه الإستعدادات، فبدون فكرة وجود الله يكون الإلزام الأخلاقي مجرد صورية وشكلية متفجرة، في مقابل افتراض وجود الله يجعل التفكير ممكنا في قوة ملزمة للقوانين الأخلاقية. "وفضلا عن ذلك إذا كان هناك بشر يفعلون خيرا مع أنهم لا يؤمنون بالله، فإن فعلهم هذا ليس عن مبدأ بل عن دواعي حسية. فأولئك البشر لا يفعلون عن مبادئ ولكن من أجل الخير الذي هو محسوس."² وتتراوح عبادة المؤمن لله بين الحب والخشية، الحب بصفته إرادة خيرة، والخشية منه انطلاقا من أنه قاض عادل، ولأن عدالته مطلقة لا تخطئ، وخشية الله ليست نفس الأمر بالنسبة للخوف منه، فخشية الله هي الحائل بيننا وبين الخوف، لأن الخوف من الله ناتج عن تجاوز الحدود والمحرمات مايولد الشعور بالذنب، ويمكن أن تكون عبادة الله إما بنوة أو عبودية، تكون بنوة عندما نطيع أوامره ونواهيها من إرادتنا الحرة القائمة على فعل الشيء دون إكراه أو إلزام خارجي، بل بدافع الحب الخالص اللامشروط لله، وتكون عبودية عندما نطيع الله من أجل الإلزام الأخلاقي القانوني، وتكون إرادتنا الحرة مكرهة على ذلك، مع ميل للتعدّي على القانون الإلهي نخفيه في باطننا مايولد الخوف.

¹ -حسن فريال خليفة، الدين والسلام عند كانط، ص 79.

² -حسن فريال خليفة، مرجع سابق، ص 83.

يرى كانط أنه في الحالة المدنية القانونية (السياسية)، تندرج علاقة البشر فيما بينهم تحت الطاعة القسرية الجماعية للقوانين، أما في المدنية الأخلاقية فهي طاعة خالية من الإكراه؛ أي في ظل قوانين الفضيلة المجردة. "يمكن للمرء أن يسمي رابطة ما بين البشر تحت قوانين الفضيلة بمجرد تطبيقها لما تأمر به هذه الفكرة، مجتمعاً أخلاقياً، (في مقابل المجتمع المدني)، أو جماعة أخلاقية"¹. وهذا يعني تأسيس دولة أخلاقية مناظرة للدولة السياسية، على أن الأولى قائمة على القوانين الخلقية للعقل الإنساني المحض، لكن تتضاءل الفكرة الكلية لجماعة أخلاقية، تحت وطأة الأيدي البشرية عندما تتحول إلى مؤسسة حسية.

إن تأسيس شعب الله الخلقي، هي فكرة تخرج عن نطاق البشر، ويختص بها الله في ذاته، ولكن هذا لا يعني أن يتخذ البشر موقفاً سلبياً وفردياً تجاه هذا الأمر، كأن يبحث كل فرد عن شأنه الخلقي الخاص، بل على كل إنسان أن يأخذ على عاتقه هذا الشأن وكأنه المسؤول الوحيد عنه، وتعتبر الجماعة الأخلاقية الخاضعة لتشريع خلقي إلهي كنيسة، ولكنها غير قابلة للتجربة، فهي تسمى الكنيسة غير المرئية، وهي فكرة مجردة، تعبر عن اتحاد كل ذوي الخلق القويم تحت الحكم الإلهي والمباشر، ولكن الخلقي للعالم، وعلى هذا تكون الكنيسة الحقّة (المرئية) هي التي تعرض المملوكات (الخلقي) لله على الأرض، بقدر ما يمكن له أن يحدث بواسطة البشر. فما هي الأمارات (العلامات) الدالة على الكنيسة الحقّة ؟

1- الكليّة: ويعني وحدتها العددية، فعلى الرغم من انقسامها إلى آراء متعارضة، ينبغي أن يجمع بينها مقصد جوهري يوحدتها.

2- طبيعة: أي كيفية هذه الكنيسة، من حيث الطهارة *die lauterkeit* ، وهي أن تخلو من أي دافع آخر ماعدا الدوافع الخلقية، المنزهة من أباطيل الخرافة و وهم الشطح الصوفي.

3- العلاقة تحت مبدأ الحرية، وتكون إما في العلاقة الباطنية بين أعضائها، وإما العلاقة الخارجية للكنيسة مع السلطة السياسية.

4- الجهة: وهي المبادئ اليقينية الثابتة التي ينبغي أن تقوم عليها الكنيسة، باستثناء الترتيبات العارضة، التي تتحول مع تغير الزمان والظروف، وينبغي أن تقوم المبادئ بشكل قبلي في ذاتها، تحت قوانين أصلية أخذت طابع الأوامر بصفة عمومية، مرة واحدة بلا رجعة.

لكن كيف حدد كانط طبيعة العلاقة بين الدولة و الكنيسة؟ هل يجوز للدولة أن تتدخل في الشؤون الخاصة بالدين؟

طبيعة العلاقة بين الكنيسة و الدولة

يرى كانط أنه يجب أن تكون السلطة الأولى للدولة على حساب المؤسسات أو الهيئات الأخرى، بما فيها المؤسسة الدينية، وبهذا يكون كانط من الدعاة الأوائل والمنظرين للدولة العلمانية التي يفصل فيها

¹ - إمانويل كانط ، الدين في حدود مجرد العقل، ص 161.

الدين عن شؤون الدولة المدنية. "و الدولة عند كانط هي اتحاد مجموع من الناس تحت قوانين"¹، ومهمة الدولة توفير السلم للمواطنين، ما يخول لها أن تحدد سلوك موظفيها المهمين وتحد من حريتهم، وخاصة الوعاظ ورجال القانون، وهذا ما يدخل في الاستعمال الخاص للعقل، إذ لا يحق لرجال الدين والوعاظ في الكنيسة أن ينشروا أفكارا مضادة للدولة والنظام العام، في حين أن من واجبات الدولة حماية الطوائف الدينية من التعرض لهجمات من الطوائف المخالفة، وبذلك تضمن الحد الأدنى من الحرية الدينية. وللدولة أيضا الحق المطلق في التصرف في أراضي الوقف، حيث لا يحق للكنيسة أن تمتلك صلاحية الوقف المؤبد، ولكن بشرط التعويض، ويحضر كانط على وجوب عدم تدخل الدولة في الشؤون الداخلية للكنيسة والرعايا، وذلك فيما يخص حرية المعتقد من جهة أن الكنيسة تساعد الدولة في الحفاظ على الالتزام الأخلاقي من خلال السعي إلى الوصول إلى الحالة الأخلاقية المشتركة، والتي تنعكس بالفائدة على السلوك العام للدولة. "ولكن ويل للمشرع الذي يريد أن يحقق بواسطة الإكراه دستورا موجها نحو الغايات الأخلاقية"² ويلخص بدوي موقف كانط في النقاط التالية:

- 1- لا يجوز للدولة الإنحياز لطائفة دينية على حساب أخرى.
 - 2- المؤسسة الدينية لها الحرية في الشؤون الداخلية، أما فيما يخص الشؤون الخارجية فهي تحت مراقبة الدولة.
 - 3- لا يحق للمؤسسة الدينية استغلال الحرية الممنوحة لها من طرف الدولة، لتوجه رجالها للتدخل في الأمور غير الدينية للشعب.
 - 4- لا يجوز للدولة استخدام الدين لتحقيق مصالح سياسية.³
- إذن رأينا كيف أسس كانط الدين وفق مبادئ العقل العملي، وأكد أن الإيمان التاريخي هو إيمان قاصر عن تمثيل و مسايرة الدين العقلي المحض، وعاجز عن تحقيق الغاية الكونية التي ينشدها الجنس البشري، والقادرة على تحقيق السلام والانسجام في العالم. هكذا بيّن كانط حدود العقل مع حفظ الإحترام اللازم الذي يكتفه للدين دون أن يقع في نزعة الشك العنيفة، وفي نفس الوقت نجح في الابتعاد عن الدوغمائية المتصلبة. لكن كيف السبيل لإيصال هذا الدين الأخلاقي إلى أكبر عدد من البشر الذين لم يتحرروا بعد من نير العبودية للعادات والتقاليد الغابرة لعصر الظلمات؟ تتمثل الإجابة في فلسفة التربية الكانطية التي لا تقل أهمية عن الدين في مشروع التنوير. فما هو جوهر التربية عند كانط؟ وما لدور الذي تلعبه في مشروع الأنوار الكانطي؟ وكيف كانت أحوال التربية في ألمانيا القرن الثامن عشر؟

¹ - عبد الرحمان بدوي، فلسفة الدين و التربية عند كانط، ص 96.

² - إمانويل كانط، مصدر سابق، ص 164.

³ - عبد الرحمان بدوي، فلسفة الدين و التربية عند كانط، ص 97.

فلسفة التربية عند كانط

تعتبر فلسفة التربية عند كانط جوهر التنوير الذي يركز على الحرية في إستعمال العقل، وبما أن الطفل هو كائن حديث النشأة ولم تؤثر فيه الأفكار والمعتقدات السابقة بعد، فإن كانط يولي أهمية كبيرة لكيفية تنشئته وتربيته لأنه سيحمل لواء وقبس الأنوار، ولهذا فقد أخرج كانط كتاب بعنوان **Ta'malat fi al-tarbiya** نشرها تلميذه رينك سنة 1803 بعنوان **uberpadagogik** أي في البيداغوجيا ويلخص فيه كل أفكاره حول المراحل التربوية التي يجب أن يمر بها الطفل منذ ولادته. لم يكن كانط ينوي تأليف كتاب في التربية ولكن اضطر لذلك لأنه عيّن في جامعة كينجزبرغ Koenigsbourg لمدة أربعة سنوات لتدريس التربية ما جعله يسجل بعض التأملات في كراسة، ووكّل تلميذه د، فريدريش تيودور رنك^{*} D, Friedrich Thedor Rink من طرف منفذ الوصية الأستاذ جرنشن MeisterGenichen بنشر ما كتبه كانط في موضوع التربية، والتي استعان بها هذا الأخير على إلقاء محاضراته، ويرجع تاريخ كتابة هذا المؤلف في شتاء 1778-1786.

لم يكن كانط يهدف إلى تأسيس نظام قبلي للتربية بقدر ما كان يسعى إلى تحقيق التوافق بين وقائع التجربة وأحكام العقل القبلية، حيث يتجلى هنا تأثير فلسفته النقدية على فلسفته التربوية، إذ تقوم هذه الأخيرة على فكرة ترك الحرية للطفل في تبني المبادئ التي تتماشى مع الخير الأعلى، والذي يقبع في باطن كل إنسان دون أن نفرضه عليه. ويرتبط مفهوم التنوير ارتباطا جوهريا بالتربية، ليس على مستوى الفرد فقط بل على مستوى المجتمع والعصر أيضا، وكذلك فيما يتعلق بالسياسة والعلاقة بين الحكام والرعية. فما هي أهم المفاهيم التي تضمنها كتاب كانط تأملات في التربية؟ وماهي الأفكار التي دافع عنها؟

التربية وغايتها عند كانط

يقول كانط: "الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يجب تربيته، ونقصه فعلا بالتربية الرعاية (التغذية، التعمد) والانضباط والتعليم المقترن بالتكوين (bildung)". ومن هذه الزوايا الثلاث، يكون الإنسان رضيعا، وتلميذا، وطالبا¹ ولأن الإنسان يتميز عن الحيوان بالعقل، فعليه ولأنه بالانضباط لكي يحقق إنسانيته ولأنه يولد قاصرا عن ذلك، فعلى الآخرين القيام على شأنه، والهدف من الانضباط هو عدم انحراف الإنسان عن غايته القصوى بتأثير من الجانب الحيواني الغريزي، والذي يعرضه للخطر وبهذا يكون الانضباط فعلا سالبا، في حين أن التعليم يعتبر فعلا إيجابيا. يرى كانط أن حالة التوحش

* - فريدريك تيودور رينك، (ولد في 8 أبريل 1770 في Hinterpommern.Schlawe: وتوفي في 27 أبريل 1821 فيغدانسك) كان عالما في اللاهوت البروتستانتي، وكان أستاذا محاضرا في الجامعة منذ 1791 في جامعة ألبرتوس في كنيغسبرغ (بروسيا). عمل Rinck من 1801 بوصفه راعي كبير في كنيسة الثالوث الأقدس في دانزيغ.

¹ - إمانويل كانط، تأملات في التربية، ترجمة: محمود بن جماعة، ط1، دار محمد علي للنشر، تونس، 2005، ص11.

هي حالة خالية من القوانين، بينما الانضباط يشعر الإنسان بالواجب، بشرط أن يكون ذلك في سن مبكرة، لأن للإنسان ميل شديد للحرية، وفي حال تعود على نمط معين من السلوك فيصعب بعد ذلك تدارك الأمر. "ولو تركنا الإنسان في حادثة سنه لا يتصرف إلا وفق مشيئته ودون شئ يمنعه، لاحتفظ طوال حياته كلها بنوع من الوحشية"¹ كما ينبغي ألا يتعرض لحنان أمومي مفرط، وذلك لأنه سيصطدم بواقع الحياة القاسي.

يذهب كانط إلى أن غياب الانضباط أسوء بكثير من نقص الثقافة، من حيث أن هذه الأخيرة يمكن تداركها بالتعليم أما الأول ففي حال لم يلحق في سن مبكرة فيصعب تداركه. "بوسع التربية أن تصبح دائما أفضل باطراد، كما بوسع كل جيل أن يخطو بدوره خطوة أكثر نحو اكتمال الإنسانية، إذ يمكن في صلب التربية السرّ الكبير لكمال الطبيعة البشرية"². ويؤكد كانط أن التربية الراهنة لا يكمن أن تحقق للإنسان الغاية من وجوده، من حيث أن الناس يختلفون في طرق عيشهم ومبادئ تفكيرهم التي تفتقر إلى التوافق والتوحد، ولأن هذه المبادئ أصبحت بالنسبة إليهم طبيعة ثانية، فينبغي تأسيس نظام جديد للتربية يراعي المبادئ الطبيعية المشتركة والقائمة على العقل، وتنمية الاستعدادات الطبيعية للإنسان وتمكين الطفل من تشكيل تصور لغايته. "إن التربية فنّ يجب أن تستكمل ممارسته من قبل الكثير من الأجيال فكل جيل، إذ يستفيد من معارف الأجيال السابقة، هو دائما أكثر قدرة على إرساء تربية تنمي كل الاستعدادات الطبيعية لدى الإنسان تنمية هادفة ومتوازنة"³.

هكذا فإن الغاية من التربية هي تحقيق الإنسانية الكامنة في الاستعدادات الفطرية للطبيعة البشرية، عن طريق الرؤية الواضحة لغاية نهائية تلوح في أفق من يسلك مسار العقل. لكن هل من السهل تحقيق هذه الغاية النهائية في الجوّ الظلامي الذي يقبع تحته أغلبية الرعية؟

صعوبة التربية وآلياتها

على الرغم من الطابع المثالي لمشروع نظرية التربية، يرى كانط أن هذا لا يمنع أن يفهم كأنه نوع من "الخيال المطلق" وذلك لصعوبة تحقيقه في التجربة، إذ ليس كل شئ بالقياس إلى عدم تعيينه في التجربة وهما. ويُرّجع كانط صعوبة التربية إلى عملية تتابع الأجيال، حيث يتم ذلك بوتيرة بطيئة من خلال خطوات تدريجية، حالها حال التنوير. "لذا فالتربية أهم وأصعب مشكلة تطرح على الإنسان، وبالفعل فالأنوار (einsicht) تتوقف على التربية، كما أن التربية تتوقف بدورها على الأنوار"⁴. ولذلك فإن فن التربية لا يجب أن ينطلق من العدم أو أن ينشأ بطريقة آلية، بل ينبغي أن يمتلك الرؤية والنظر والتفكير، وابتداع أساليب تتسم بالمرونة في التعامل مع الطفل ومراعاة الجوانب التطبيقية والنظرية والقدرات العقلية، بغية الوصول إلى نظام منسجم ومتوازن يوفق بين التجربة والعقل، يقول

¹- نفس المصدر، ص 13.

²- نفس المصدر، ص 14.

³- إمانويل كانط، مصدر سابق، ص 17.

⁴- نفس المصدر، نفس الصفحة.

كانط:"ولكن اذا أريد لهؤلاء الأطفال أن يصبحوا أفضل، يجب أن تصبح البيداغوجيا دراسة (أو بحثا)...فيجب في فن التربية تحويل الآلية إلى علم، وإلا لن تكون التربية جهدا متماسكا"¹ ولذلك يجب ألا تكون التربية تكييفا مع الحالة الراهنة مع ماتنطوي عليه من فساد، بل ينبغي أن تتجاوز ذلك إلى تصور حالة أفضل.

وهكذا فإن فن التربية كما يسميه كانط يجب ألا يكون أليا مستخلصا من التجربة العينية أي تعلم ما هو مفيد و ما هو ضار، بل عليه أن يتحول إلى علم أو ما يسمى بالبيداغوجيا القائمة على تصورات العقل و تنمية الإستعدادات الطبيعية للطفل، و القدرة على التفكير النظري. "و سير التربية إما أن يكون أليا (ميكانيكياً) أي بدون خطة موضوعة، أو وفقا لخطة عقلية مرسومة و الحالة الأولى تؤدي إلى الكثير من الأخطاء و المناقض، و الثانية هي وحدها الكفيلة بتحقيق تربية سليمة."²

يطرح كانط إشكالية مهمة و جوهرية ألا و هي : هل يجب أن تبدأ التربية من الرعاية تجاه الحكام أم يجب أ يلتزم بها الحكام أولا؟

يرى كانط أنه من الأفضل أن يتربى الحكام من طرف الرعاية و من قبل الخواص، من حيث أنه يجب افتراض وجود تربية فضلى للأمرء قبل أن ينفذوا قراراتهم على الشعب، من جهة أنهم يمثلون القدوة المتبعة التي يتفاعل معها الرعاية أكثر من أي فئة أخرى في المجتمع." إلا أن عددا من أولي الأمر لا يرون في شعهم، إن صح القول، إلا جزءا من المملكة الحيوانية و يقتصرون على العناية بتناسله، و يرغبون على أكثر تقدير في أن يمتلك مهارة معينة، و لكن فقط لكي يستطيعوا على نحو أفضل بكثير أن يستعملوا رعاياهم أداة (لتحقيق) أهدافهم"³. و بذلك على الذين يسمون الخواص و هم أصحاب الأكاديميات و المدارس، أن لا يحدوا النمو الإنساني في المهارة فحسب، بل أن يراعوا مع ذلك التحسن الخلقي، و السعي إلى الوصول بالجيل الجديد إلى أحسن من الحالة الراهنة.

ومن كل ما سبق، نستخلص شروط كانط الأساسية للتربية :

-الانضباط: ويتمثل في حفظ الإنسانية من النزعة الحيوانية.

2-الثقافة: و تحتوي التعليم و مواد التدريس و تحسين المهارة، والتي تفتح المجال لتحقيق الغايات اللامحدودة.

3-الحضارة: وهي صفة اجتماعية وهي نوع من السلوك الراقي و تتأتى كنتيجة لممارسة الفنون والآداب والتي تتجلى في صورة مهذبة.

4-التنشئة الخلقية: وهي احساس (gesinnung) باطني يختار أحسن الغايات، و تتسم هذه الغايات بالشمولية والقابلية للشعور من طرف كل إنسان.

¹- نفس المصدر، ص 19.

²- عبد الرحمان بدوي، فلسفة الدين و التربية عند كانط، ص 123.

³- إمانويل كانط، مصدر سابق، ص 20 .

في نظر كانط لا تكتمل التربية بعد الترويض، بل هنا فقط تبدأ أهم مرحلة و هي تعليم الأطفال كيفية التفكير، كأن نعلم الأطفال أن يمقتوا الرذيلة في ذاتها، وليس فقط لأن الله حرمها، وإلا فسيظنون أن الشر لولم يحرمه الله فيجوز فعله، إذ يقول: "إننا نعيش عصرا يتميز بالانضباط والثقافة والحضارة، ولكننا لا نعيش إلى لأن عصرا يتسم بالتدشنة الأخلاقية، ويمكن القول في حالة الإنسان الراهنة إن سعادة الدول تزداد في نفس الوقت الذي يزداد في بؤس البشر".¹ وينبه كانط إلى مراعاة التجربة في التربية وعدم الإنصياع التام وراء تنظيرات العقل.

هكذا وقد تعرفنا على آراء كانط في التربية و غايتها بصفة عامة، فما هي نظريته الخاصة بالتربية أو ما يسميه بالبيداغوجيا؟

البيداغوجيا وأنواعها

البيداغوجيا أو علم التربية، وهي نوعان جسمية وعملية. النوع الأول يعتمد على الترويض الآلي مثل : الحيوان، أما النوع الثاني و هو السليم و هو التنوير، حيث يقوم على تعليم الطفل كيفية التفكير بحرية دون وصاية على فكره، و هذا ما ينمي لديه الإستعدادات الطبيعية و تقدير الذات و إدراك فرديته و إنسانيته. " و الإنسان إما ان يروض و يوجه توجيها آليا. و إما أن يُنور تنويراً حقيقياً. و الترويض للكلاب و الخيول. و يمكن أيضا أن يكون لبني الإنسان ... لكن التربية لا تتم بالترويض : إذا المهم قبل كل شئ هو أن يتعلم الأطفال كيف يفكرون"²

وسنحاول أن نركز فقط على الجانب العقلي من التربية لتوافقه مع موضوع مذكرتنا.

أ- التربية العقلية

يميز كانط بين ثقافة الذهن المادية و بين الثقافة الأخلاقية فالأولى تختص بالطبيعة، بحيث يمكن أن يجمع المرء بين ثقافة و ذهنية حاذقة و أخلاق سيئة، بينما تركز الثقافة الثانية، أي الأخلاقية على التدشنة الحسنة القائمة على الحرية، و يصف كانط تربية النفس بأنها تربية فيزيائية و له مبرراته في ذلك، من حيث أن تربية النفس تقوم على تنمية الإستعدادات الطبيعية و الميولات و ضبط الإرادة، و تبدأ التربية الأخلاقية عند الحدود الفيزيائية للتربية النفسية، ذلك لأن التربية الأخلاقية نابعة من الحرية، و هذه الأخيرة فضاؤها الأخلاق. " لهذا يمكن المرء أن يكون رفيع في مستوى التربية فيزيائيا و عقليا، لكن تعوزه الأخلاق. فما دامت الثقافة العقلية لا تتعلق بالأخلاق، فإنها تظل في حيز الطبيعة، أي فيزيائية. كذلك يمكن نعت الثقافة العقلية بأنها فيزيائية، لأنها تقوم في معظمها على الإنضباط، شأنها شأن التربية البدنية، و هذا هو ما يُشاهد في التربية المدرسية"³

¹ - إمانويل كانط، مصدر سابق، ص 23.

² - إمانويل كانط، نقلا عن عبد الرحمان بدوي، مرجع سابق، ص 123.

³ - عبد الرحمان بدوي، مرجع سابق، ص 135.

لكن يجب عدم تعويد الأطفال على أخذ الأمور باستسهال و اعتبار كل شئ قابل للعب واللهو، وهذا مايسبب أضرارا خطيرة عندما يكبرون ويجعل منهم أفراد غير مسؤولين تجاه قضايا الحياة، و هنا يؤكد كانط على ضرورة العمل بالنسبة للطفل، ومع ذلك فلا بد للسماح له في للترويح عن نفسه أحيانا أخرى."فمن العجيب حقا أن نرى كيف يقدر أناس متعلقون على البقاء جالسين، وعلى اللعب بالورق طوال ساعات. و من ثم ندرك أنّ البشر لا يتوقفون بمنتهى السهولة عن أن يكونوا أطفالا".¹ كما ينوه كانط إلى أهمية حفظ الذات، حتى وإن تكبد ذلك شيئا من الإكراه، وينفي أن الله قد وفر كل شئ للإنسان يغنيه عن العمل، و يشير كانط إلى خطأ تصورنا لحالة آدم و حواء في الجنة، ذلك بأنهما جلسا فقط مع بعضهما دون فعل شئ آخر، فلو كانت الحال كذلك لأصابهما الضجر والملل، و هذا يبين أن طبيعة الإنسان تقوم على العمل و الشقاء، و يضطر في معظم الأحيان لممارسة نوع من القهر الجسدي و النفسي لكي يحفظ بقاءه.

و ينتقل كانط من التربية العملية إلى ما يسميه تربية ملكات النفس. فماهي هذه الملكات و ما هو المنهج الذي يستخدمه كانط في تربيتها؟
ب- تربية ملكات النفس

و يتبنى كانط المنهج السقراطي في إستخدام الملكات العليا التي تشمل: الذهن، و ملكة الحكم، و العقل (Vernunft) ، و هي الطريقة التي تستدرج الطفل إلى توالد الأفكار دون الحاجة إلى تلقينه إياها خارجياً، لأنها ذات طبيعة قبلية في العقل المحض، و فيما يخص ملكات العقل فيجب عدم تغليب ملكة على أخرى، و ليس للقوى الدنيا أي قيمة في حد ذاتها، فمثلا: إنسان ذو ذاكرة قوية و لكن تعوزه ملكة الحكم، فهو ليس سوى معجم حي، و الهزل لا يعبر سوى عن حماقات إن لم يحتكم إلى ملكة الحكم، يقول كانط: "الفاهمة هي معرفة الكلي، وملكة الحكم هي تطبيق الكلي على الجزئي، و العقل هو القوة التي تسمح بإدراك علاقة الكلي بالجزئي".²

لكن من بين أنواع التربية التي ذكرناها تأتي التربية الأخلاقية في قمة الإهتمامات في النظرية الكانطية؟ فما هي مبادئ التربية الأخلاقية؟

ج- التربية الأخلاقية

و يعتبر كانط التربية الأخلاقية أهم نوع من بين كل الأنواع السابقة الذكر، و تكون الغاية النهائية منها هي الكمال الأخلاقي، و مثل ما هو معروف بالنسبة لفلسفة كانط الأخلاقية، من حيث أنها تنص على أن يفعل الإنسان الواجب لذاته مجرداً من كل منفعة أو مصلحة أو ميول و رغبات حسية، و إنطلاقاً من هذا المبدأ يؤسس كانط التربية الأخلاقية على قواعد أخلاقية (Maximen) و ليس على الإنضباط (Disziplin) حيث يعمل هذا الأخير على منع النقائص، فيما تتجه التربية الأخلاقية إلى

¹- إمانويل كانط، تأملات في التربية، ص47.

²- إمانويل كانط، مصدر سابق، ص49.

تنمية كيفية التفكير، و تعليم الطفل التصرف وفق قواعد أخلاقية في ذاتها، لا انطلاقا من دوافع (Triebfedern). "إنه لا يبقى من الإنضباط غير عادة تنمحي على مرّ السنين. ويجب على الطفل أن يتعلم القيام بالفعل وفقا لقواعد أخلاقية يدرك بنفسه أنها عادلة و من البين بغير عناء أن هذا الأمر من العسير الحصول عليه عند الطفل، وتبعاً لذلك فإن التربية الأخلاقية تفترض كثيراً من التّور من جانب الآباء والمعلمين"¹. وهذا ما يسميه كانط بالثقافة، فمالذي يعنيه كانط بذلك؟

يقصد كانط بالثقافة، الثقافة العامة لقوى الذهن : و هي تسعى لتحقيق المهارة و الإتقان، و تكوين القوى العقلية وتنقسم إلى نوعين:

-مادية : و تركز على التمرين و الإنضباط، و يكون فيها الطفل مستقبلا سلبيا، دون دراية بالمبادئ، و لا يضطررنا للتفكير مادام هناك من ينوب عنه.

-أخلاقية : و لا تقوم على الإنضباط، وإنما تسعى إلى معرفة الطفل بالمبادئ الخاصة به إنطلاقا من تفكيره الخاص، و أن يفعل الخير ليس لأنه كذلك، وإنما لأنه حسن في ذاته.

يقول كانط : " أما التربية الأخلاقية، فلا بد من أن تقوم على مبادئ، لا على الإنضباط، فهذا الأخير يمنع العيوب، والأخرى تنمي طريقة التفكير، فينبغي الحرص على أن يعتاد الطفل التصرف وفق مبادئ. لا بحسب دوافع (triebfedern)"².

لكن هناك نوع آخر من التربية وهو الجانب العملي من التربية الأخلاقية، فما هي قواعده؟

د- التربية العملية

و تشمل التربية العملية ثلاثة أمور: 1- المهارة؛ 2- الفطنة؛ 3- الأخلاقية.

فالأمر الأول أي المهارة : ويشترط كانط أن تكون راسخة وليست مؤقتة، و أن تصبح جزءا عميقا في طريقة التفكير. " فذلك هو الجوهر في خلق الإنسان. و المهارة ضرورية للقريحة (أو : الموهبة)"³.

أما الأمر الثاني الذي يخص الفطنة (Weltkugheit)، فهي تتلخص في فن تطبيق المهارة على الإنسان، أي التعامل مع الناس لتحقيق الغايات الخاصة، و لذلك يجب تعليم الطفل القدرة على التستر و إخفاء مشاعره الحقيقية، و الموازنة بين التوقد و التراخي. و يرى عبد الرحمان بدوي أن هذا الموقف يبدو غريبا بالنسبة إلى مذهب كانط الأخلاقي. " لكن لا ننسى ها هنا أن كانط في تأملاته هذه البيداغوجية اضطر إلى الترخّص في أمور لا تقرّه عليها إلزامات مذهبه الأخلاقي"⁴.

أما الأخلاقية فتسعى إلا تحسين الخلق، و ذلك من خلال تعليم الطفل تنمية الوجدانات، أي تحويل الميول الحسية إلى وجدانات، حتى يمكنه التحكم فيها عن طريق النظر إليها بنظرة عقلية ما

¹ - إمانويل كانط، نقلا عن عبد الرحمان بدوي، مرجع سابق، ص 144.

² - إمانويل كانط، تأملات في التربية، ص 58.

³ - إمانويل كانط، نقلا عن بدوي، نفس المرجع، ص 149.

⁴ - عبد الرحمان بدوي، نفس المرجع، ص 150.

يساعده على السيطرة على أهوائه المفرطة بشجاعة، وهكذا يتولد لديه نوع من التعالي و الإحتقار لهذه الرغبات الحسية، وينبع هذا الحس المتعالي من إدراكه الباطني لقيمتة الإنسانية. ومن واجبات الإنسان تجاه ذاته أن يحافظ على الإحساس الداخلي بالكرامة الإنسانية. "إننا نتخلى عن كرامة الإنسانية، حين ندمن الخمر مثلاً، ونرتكب أثاماً مخالفة للطبيعة، ونمارس شتى أنواع المجون إلخ، أي سائر الأمور التي تنزل الإنسان دون الحيوان بكثير.¹" ويعتبر كانط الواجب تجاه الذات أهم بكثير وأسبق من الواجب تجاه الآخرين، لأن هذه الأخيرة تستند إلى معاملات خارجية سطحية في حين أن الأولى هي المبادئ الأساسية للأخلاق والتي يعيها الإنسان في باطنه دون أي قيد أو قسر إجتماعي يجعله يوافق ويتملق، وهذه المبادئ هي التي تساعد الطفل عندما يكبر في السن ويميل إلى الجنس على كبح رغباته ومراقبتها.

وعليه، يجب تغليب فكرة الواجب لدى الطفل، بدلاً من استثارة عواطفه، ولهذا فعلى الآباء و المعلمين إظهار الواجب كتصور عقلي، لا كمجرد استرحام. " ذلك أن الإسترحام بدلاً من غرس فكرة الواجب كثيراً ما يؤدي إلى العكس : فكثير من الناس صارت قلوبهم قاسية، بعد أن أصيبوا بخيبة أمل في الذين عطفوا عليهم عطفاً انفعالياً و من باب الرحمة لا من باب الواجب.²" وهكذا فإن التربية العملية يجب أن تقوم على فكرة الواجب، و ألا تتحول إلى مجرد سلوك انفعالي. لكن ما موقف كانط التربوي من الدين؟ هل يمكن تعليم الطفل في وقت مبكر المعاني الدينية؟

هـ- التربية الدينية

قبل أن نعرض إجابة كانط عن هذا السؤال، حريّ بنا أن نخرج على موقف روسولأنّه أسبق في الزمن وله علاقة وطيدة بموقف كانط، و يرى روسو أن الطفل ليس جاهزاً لفهم أو إدراك معنى اللاهوت و اللانهائي. " و أنت حين تقول للطفل إن الألوهية ليست أمراً من الأمور التي يمكن أن تقع تحت الحواس : فإما أن عقله المضطرب لا يفهم شيئاً، أو يفهم أن الألوهية ليست شيئاً.³"

يذهب كانط إلى نفس ما قال به روسو، من حيث أن الأطفال لا يفهمون معنى الألوهية و لا يدركون ما هذا الواجب، ولأن كل الأطفال يُلقنون فكرة الله منذ نعومة أظافرهم فيستحيل أن توجد في الواقع حالة تخلو من فكرة الله. ولهذا يرى كانط أنّه لا يجب أن نوصل إليهم هذه الأفكار بالطريقة الآلية، المعتمدة على الذاكرة، ولكن ينبغي أن نتبع معهم طريقة التدرج بوصف الطبيعة و ما فيها من جمال و إنسجام، و أنها تحتاج إلى صانع مبدع وهكذا نمهد لهم فكرة الله حتى يدركونها بصفة أعمق. " و خير وسيلة لتوضيح مفهوم الله عند الطفل أن نقارنه بالأب الذي يحرسنا جميعاً ويرعانا، و بهذا نبث فكرة و حدة الناس جميعاً.⁴"

¹ - إمانويل كانط، تأملات في التربية، ص 69.

² - إمانويل كانط، نقلاً عن عبد الرحمان بدوي، مرجع سابق، ص 154.

³ - جون جاك روسو، نقلاً عن عبد الرحمان بدوي، نفس المرجع، ص 156.

⁴ - إمانويل كانط، نقلاً عن عبد الرحمان بدوي، مرجع سابق، ص 157.

هكذا تصبح فلسفة التربية من أهم وسائل نشر الأنوار عند كانط، وذلك من خلال نقل الفكر التنويري من جيل إلى جيل، ومنح فرصة للمعرفة والتعلم لكل من يقدر على استعمال عقله بحرية، وهذا سيعمل على تبديد عبودية العصور المظلمة، وبطريقة تدريجية ستصل الأنوار إلى مراحل متقدمة في سيرها الحثيث صوب تحقيق مبادئها، وجعل الإنسان جدير بهذه الحياة.

الخلاصة

أكد كانط على أهمية العقل البشري وتحرره من كل سلطة خارجية قائلا: "العقل الإنساني لا يعترف بقاوض آخر غير العقل نفسه" لكن ما يميز التنوير الكانطي هو عدم مبالغته في قدرات العقل الإنساني، فقد كان أول من وضع الحدود المبينة لمجال الفهم البشري، حاصرا إياها في إدراك ظواهر الأشياء، دون أن يغلق الباب على الإيمان الذي أسسه على الأخلاق التي عن طريقها نصل إلى فكرة الموجود الأسمي، وهكذا فإن كانط تجاوز المذهب التوكيدي أو الدوغمائي، والمذهب الشكي من جهة أخرى، فإن أثبت شيئا أثبتته في حدود التجربة الممكنة وداخل حدود العقل، فلا شيء قابل للإستثناء إلا ما ينص عليه العقل العملي، واضطر إلى التسليم به، ويتعلق الأمر بخلود النفس والحرية ووجود الله. ويتجلى تأثير كانط القوي على الفكر الحديث، حيث أن آراؤه في التنوير باتت سؤالاً راهنياً، في خضم سيطرة التقنية على وعي البشر وتغييب الإنسان عن ساحة الإهتمامات، نتيجة لتعالى الفلسفات المادية والوضعية، حيث يعتبر التنوير الكانطي دعوة لإعادة القيمة الحقيقية للإنسان، وتنمية الحس الأخلاقي الذي أصبح يفتقر إليه معظم البشر في عالمنا المعاصر، وتعد الفلسفة الأخلاقية التي أسسها نموذجاً كونياً للأخلاق الإنسانية، والتي يجب أن تتبناها البشرية كخلاص نهائي من الخلافات الدينية والإثنية التي تمرق العالم اليوم.